المحاضرة الأولى: فلسفة اللغة وإشكالية التسمية – تعريفات أولية

مقدمة

من الواضح أننا عندما نريد أن ندرس فلسفة اللغة، فإننا لا ندرس قواعد النحو والصرف والاعراب والاشتقاق، بل يتجه الامر إلى دراسة اللغة على نحو فلسفي مستخدمين في ذلك وسائل الفلسفة وادواتها مثل النظرة الكلية والشمولية والنقدية.... متسائلين عن طبيعتها، وكيفية تشكل المعاني وأصلها. وأصل الأسماء ولعلنا في هذه المحاضرة الاولي سنقف عند تعريف بعض المصطلحات المهمة، التي هي مهمة بالنسبة للطالب لكي يفهم باقي البرنامج الدراسي .

1. فلسفة اللغة: أول مصطلح يلاقيه الطالب في هذا المقياس هو مصطلح فلسفة اللغة، ومن المؤكد أنه مصطلح جديد لديه، فماذا نعني بفلسفة اللغة؟

لا شك أن فلسفة اللغة هي فرع من الفلسفة يعالج كل ما يتعلّق باللغة بوصفها أداة تواصل انساني وثقافي. تطرح فلسفة اللغة تساؤلات كلية: مثل: ما أصل الكلمات والاسماء؟ هل تعبر اللغة عن حاجياتنا المختلفة؟ هل اللغة مجرّد أداة نتواصل بها، أم أنها جزء من تفكيرنا نفسه؟ وهل يستطيع الإنسان أن يفكّر دون لغة؟

ومعنى هذا أنّ فلسفة اللغة تُعنى بمساءلة اللغة كأداة، وتبحث عن طبيعة هذه الأداة وحدودها وامكانياتها وعلاقتها بالإنسان والعقل والثقافة. ويجدر الإشارة أن الفيلسوف عندما يجرس اللغة فهو يدرسها من خلال أدوات الفلسفة: من منظور كلي وشمولي ونقدي على عكس المتخصص في مجال من اللغة كالنحوي مثلا. ولفلسفة اللغة جذور قديمة، بدأت مع فلاسفة اليونان، ثم تطوّرت مع الفلاسفة المسلمين والمسيحيين في القرون الوسطى، ثم أعيد بناؤها في الفلسفة الحديثة والمعاصرة.

ومع ذلك سوف نستعين بمجموعة من التعريفات لفلسفة اللغة لفهم هذا المجال على نحو أوسع:

ا. تعريف جون سيرل يعرّف سيرل فلسفة اللغة بأنها محاولة لتقديم وصف واضح ودقيق، ومن منظور فلسفي، لبعض الخصائص العامة المتعلقة باللغة مثل الدلالة والمعنى والصدق. وهي لا تهتم بعناصر خاصة بلغة معينة إلا بصورة عرضية، لذلك فهي تعدّ فرعًا من فروع الفلسفة يهتم بالمشكلات التي تطرحها اللغة ذاتها .

ب . تعريف سيلفان أورو: حيث يرى أن فلسفة اللغة هي مجموعة من التأملات والأفكار المتنوعة المصادر، مثل تعليقات الفلاسفة حول اللغة وملاحظاتهم عنها. ورغم عدم تجانس هذه الأفكار وغياب التماسك النظري الكامل بينها، فإنها تظل مجالًا فلسفيًا مهمًا يهتم بدراسة اللغة.

ج. تعريف محمود فهمي زيدان: يؤكد هذا الاخير أن فلسفة اللغة أصبحت اليوم مبحثًا مستقلًا في الفلسفة، وقد ازداد الاهتمام بها منذ بداية القرن العشرين. ويمكن القول إنها مجموعة مترابطة من الدراسات التي يقوم بها المناطقة والفلاسفة لمعالجة الأسئلة والمشكلات المرتبطة باللغة. (هشام، 2020)

من خلال هذه التعريفات يتبين لدينا أن فلسفة اللغة تدرس قضية اللغة على نحو كلي وشمولي ولا تختص بهذه اللغة أو تلك بل تنظر الى جميع اللغات بوصفها أداة يجب فحصها والنظر إليها من منظور فلسفي.

2.إشكالية التسمية :

بعدما تطرقنا إلى مفهوم فلسفة اللغة سوف نتطرق إلى إشكالية التسمية، فماذا نعني بالتسمية؟

ففي الكثير من المرات ما نسمع أسماء لأشياء او لأشخاص، مثل طاولة، حاسوب، محمد، رادار....الفلبين . ولكن السؤال المطروح هنا: من اين جاءت هذه الأسماء؟ هل هذه الأسماء ملتصقة بالاشياء التي تعنيها؟ أو بعبارة أخرى: هل هناك علاقة بين الاسم والمسمى؟

تعريف الاسم في اللغة: عُرّف الاسم بعدَّة تعريفات، نذكر منها: أن الاسم هو اللفظ الدَّالُّ على المسمَّى. أو أنه هو القول الدال على المسمَّى أو هو قول يدل على مذكور يضاف إليه .

نلاحظ أنّ هناك فرق بين "الاسم" والمسمّى" و"التَّسمية : فـ "الاسم" هو: اللفظ الدال على المسمَّى. وأما "المسمى" فهو: الشيء الموجود في الأعيان أو الأذهان. وأما "التسمية" فهي: فعل المُسمِّى ووضعه الاسم للمُسمَّى. (التميمي، 2019، صفحة 32)

مثل كلمة طاولة: فالطاولة اسم، والشيء الخشبي الذي تشير إليه هو المسمى، والتسمية تشير إلى الذي وضع الاسم.

3. العلاقة بين الاسم بالمسمى:

ولكن ما نوع العلاقة التي تربط بين الاسم والمسمّى؟ فهل كلمة طاولة لها علاقة جوهرية بذلك الشيء الخشبي؟ أم أنه يمكن أن نسمي ذلك الشيء الخشبي ذو أربع الارجل مثلا بالحاسوب أو بالسيارة. هذا السؤال هو الذي انقسم حوله المفكرون إلى اتجاهين كبيرين:

أولًا: الاتجاه الطبيعي في التسمية

فلنستمع إلى الاتجاه الطبيعي الذي يرى بأن العلاقة بين الاسم والمسمّى ليست مجرد اتفاق بين الناس، بل لها أساس طبيعي أو جوهر ثابت. بمعنى أن الاسم يناسب الشيء الذي يدلّ عليه، وأن بينهما نوعًا من الانسجام أو الارتباط العميق. وقد ظهر هذا الاتجاه بوضوح في بعض المدارس الفلسفية القديمة. وكان الفلاسفة الذين تبنّوه ينظرون إلى اللغة باعتبارها انعكاسًا لطبيعة الأشياء. فالكلمة – في تصورهم –لا تُسمّى صدفة، بل لأنها منسجمة مع حقيقة الشيء. وقد وجدوا في بعض الظواهر اللغوية دعمًا لهذا الرأي، مثل:

المحاكاة الصوتية: فقالوا أن كثيرًا من الكلمات تحاكي أصوات الأشياء نفسها، مثل: خرير الماء، صهيل الحصان، قعقعة السلاح، طقطقة الخشب. هذه الكلمات تبدو وكأنها "تنبثق" من طبيعة الأشياء، وليست اختيارًا بشريًا عشوائيًا.

انسجام الصوت مع المعنى: كان بعضهم يعتقد أن الأصوات تحمل دلالات طبيعية. فالصوت الشديد قد يناسب المعاني القوية، والأصوات اللينة قد تناسب المعاني الرقيقة. مثال: صوت القاف والحاء في العربية "قحط" يعكس معنى الجفاف والصلابة، والخاء والشين يرمز للخشونة. وصوت السين في "نسيم" يعكس الرقة والهدوء. هذه الملاحظات جعلتهم يعتقون بأن الصوت والمعنى بينهما تناسق طبيعي.

الاعتراضات على الاتجاه الطبيعي: ولكن مع ذلك ظهرت اعتراضات على هذا الاتجاه:

الاعتراض الأول: حجة اختلاف اللغات بين الشعوب، فلو كانت العلاقة طبيعية بين الاسم والمسمى، لكان الاسم واحدًا عند كل الشعوب. لكننا نرى الشيء الواحد له أسماء كثيرة. فكلمة كتاب تختلف من لغة إلى أخرى...

الاعتراض الثاني: كما أنّ المحاكاة الصوتية موجودة في بعض الكلمات، لكنها قليلة جدًا مقارنة بالعدد الهائل للكلمات.

الاعتراض الثالث: حجة تغيّر اللغة عبر الزمن فلو كانت التسمية طبيعية، لكانت ثابتة. لكن اللغات تتغير وتتطور وتتبدل مفرداتها .

ثانيًا: الاتجاه الوضعي /الاصطلاحي

في المقابل لدينا الاتجاه الاصطلاحي الذي يؤكد على فكرة أنّ اللغة ليست طبيعية ولا فطرية في أصلها، بل هي ناتج اتفاق بين البشر. أي أنّ الجماعة البشرية هي التي تختار الأسماء للأشياء، وفق حاجاتها وظروفها وثقافتها، ثم تتوارث هذه الأسماء جيلاً بعد جيل. وبذلك تصبح اللغة ظاهرة اجتماعية، تنشأ بالتواضع والتراضي، ولا تتأسس على روابط طبيعية تربط بين اللفظ والمعنى.

يؤكد أنصار هذا الاتجاه أنّ العلاقة بين الكلمة وما تدلّ عليه اعتباطية، أي لا تقوم على ضرورة طبيعية. فالشيء الواحد يمكن أن يحمل ألف اسم في لغات مختلفة، وهذا الاختلاف الكبير دليل على أن التسمية كانت اختيارًا بشريًا، لا نتيجة لعلاقة جوهرية بين الصوت والدلالة.

مثال ذلك:

ماءWater – Eau – Aqua

شمسSun – Soleil – Sol

فلو كانت العلاقة طبيعية لأصبحت الأسماء واحدة أو متقاربة.

حجج الاتجاه الاصطلاحي: قدّم أصحاب هذا الاتجاه عدة أدلة دعمت موقفهم، منها:

أولاً: اختلاف اللغات وتنوع الأسماء حيث تنوّع اللغات الواسع يجعل من الصعب قبول فكرة أن أسماء الأشياء طبيعية. فلماذا يطلق لفظ الليل في العربية، و nacht في اللغة الألمانية، و "night"في الإنجليزية؟ هذا التباعد في الالفاظ يدفع باتجاه القول بأنّ البشر اخترعوا الألفاظ واخترعوا العلاقة بين اللفظ والمعنى.

ثانيًا: تغيّر اللغة عبر الزمن: فالكلمات تتبدّل مع العصور، وهذا التغيّر لا ينسجم مع فكرة وجود تناسب ورابط طبيعي ثابت بين الاسم والمسمّى. فلو كانت اللغة طبيعية لما تغيّر لفظ "الاسد" مثلًا عبر القرون.

ثالثًا: وجود لهجات داخل اللغة الواحدة: فحتى داخل المجتمع الواحد نجد كلمات مختلفة للشيء نفسه بين القبائل أو المناطق، مما يدل على الدور الاجتماعي والاتفاقي في التسمية.

يركّز الاتجاه الاصطلاحي على أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية قبل أن تكون طبيعية. فالناس اتفقوا على علامات صوتية ليتواصلوا، وجعلوا من هذه العلامات نظامًا متعارفًا. وبمرور الزمن استقرت هذه العلامات وتحولت إلى منظومة لغوية مستقلة. في هذا التصور تصبح اللغة أشبه بـ: القوانين والعادات والرموز المشتركة التي تتأسس على التوافق بين أفراد الجماعة. (مصطفى، 2018، الصفحات 65-70)

أثر الاتجاه الاصطلاحي في الدراسات اللسانية

لقد أصبح هذا الاتجاه حجر الأساس في اللسانيات الحديثة، خاصة بعد أعمال فرديناند دي سوسير الذي وضع مبدأ "اعتباطية العلامة اللغوية" حيث يرى سوسير أن العلاقة بين الدال (الصوت) والمدلول (المفهوم) لا تحكمها ضرورة طبيعية، بل هي اتفاق جمعي. وهذا المبدأ هو الذي فتح الباب أمام: دراسة البنية اللغوية وفهم النظام الصوتي والدلالي وتحليل اللغة

بوصفها نسقًا من العلامات فاللغة هنا ليست مرآة للطبيعة، بل منظومة يصطلح عليها المجتمع .

إذن الأسماء ليست إلا تواضع انساني، واتفاق بين البشر فالكثير من المصطلحات العلمية المعاصرة اتفق عليها العلماء، مثل كلمة حاسوب، والانترنت، وذكاء اصطناعي، والمورثات الجينية... هذه الأسماء اطلقها العلماء على أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل.